الفاخورة .. معاناة شعب وفاجعة طلاب

بسام صالحة

اليوم هو يوم السبت 27 من كانون الأول 2008، وغداً سيستمتع طلاب مدرستي بإجازة رأس السنة الهجرية (1430)، وكان بودهم لو أخذوا الإجازة هذا اليوم بدلاً من غد ليصلوا عطلة يوم الجمعة بعطلة رأس السنة الهجرية، وبذلك يكون لديهم متسع من الوقت ليزوروا أقاربهم خارج مخيم جباليا، ولكن لا بأس، فقد اتفقت مع بعض طلابي أن نستغل الإذاعة المدرسية للحديث عن الهجرة النبوية وربطها بهجرة الشعب الفلسطيني عن وطنه، فتكون لديهم فكرة جيدة عن مناسبة هذه العطلة التي سيتمتعون بها.

كان طلابي في انتظار خروج طلاب الفترة الصباحية ليحلوا محلهم على مقاعد الدراسة في الفترة المسائية، هذا يلهو مع زميله، وذاك يراجع مع زميله النشاط البيتي، وثالث يدرس أسئلة المراجعة نظراً لقرب اختبارات نهاية الفصل الأول. وفجأة دوت انفجارات عدة عنيفة هزت المكان، وكأن زلزالاً قوياً قد حدث، فأخذتُ أنا وزملائي المعلمون طمأنة الطلاب بأن هذا ما هو إلا تفريغ طائرات أو غارات وهمية -كما يقولون- فقد تعودنا على مثل هذه الغارات الوهمية، ولكن استؤنف دوي الانفجارات في كل مكان، وتعالت سحب الدخان، ودوت صفارات سيارات الإسعاف والدفاع المدني، فأيقن الجميع أنه قد وقع ما كان الجميع يتوقعه، وإن كان البعض قد راهن على أن وقوعه غير معقول.

كانت الساعة بعد الحادية عشرة بقليل، وكان معظم طلاب الفترة الصباحية قد غادروا إلى بيوتهم وكان طلابنا داخل الفصول الدراسية، فهاجوا وماجوا، واجتهد المعلمون في بث الطمأنينة في نفوسهم، ولكن دون جدوى، فقد كان الأمر أكبر من أن تتم السيطرة عليه. وما هي إلا

لحظات، حتى هرول الطلاب خارج الفصول، ولم يمضِ إلا وقت قصير حتى فرغت المدرسة من الطلاب، ثم من المعلمين.

ظننَّا أن الأمر سيستغرق يوماً أو بضعة أيام، ولكن طال أمد العدوان، ولم يكتفِ بالقصف الجوي، بل بدأ بالزحف البري على المناطق الحدودية وغير المكتظة بالسكان. وكان نصيب قرية بيت لاهيا ومنطقتي السلاطين والعطاطرة غرب مخيم جباليا هو النصيب الأوفى من القصف والتدمير والقتل بالجملة للأطفال والنساء والشيوخ، فخرج الناس في هذه المناطق من بيوتهم وبساتينهم لا يلوون على شيء، ولكن أين يذهبون؟ أين يجدون الأمن والأمان حتى تنتهي هذه الأزمة ويعودون من حيث خرجوا؟ لم يجدوا -بحسب ما ظنوا- خيراً من مدارس وكالة الغوث الدولية، فمن ناحية هي مدارس من المستبعد أن ينالها القصف، ومن ناحية أخرى هي تابعة لوكالة الغوث الدولية التي هي بعيدة عن الصراع. فهل وجدوا الأمن والأمان حقًا؟ لنرَ!

«بعد أيام عدة من العدوان اتصلت بي وكالة الغوث، وطلبت مني المساعدة في إيواء الناس الذين يفرون من القصف في مدرستي، مدرسة الفاخورة، وطلبت مني الاستعانة بمن أراه مناسباً من معلمي المنطقة ومعلماتها، فاتصلتُ بعدد من المعلمين الذين أعرفهم، فوافقوا جميعاً دون استثناء، وكان ذلك في الصباح الباكر، فذهبتُ للمدرسة وفتحتُ أبوابها، ولكني لم أجد أحداً هناك، فقد لجأ كثير من الناس إلى مدرسة بيت لاهيا الابتدائية للاجئين، لأنها أقرب إليهم من مدرسة الفاخورة، وبعد لحظات بدأ زملائي في المجيء إلى المدرسة، ثم ما لبث أن انهالت الجموع من البشر على المدرسة من كل حدب وصوب. ولم تكن هناك في البداية أية مواد غذائية أو ملابس أو أغطية، لدرجة أن الأطفال والنساء قد باتوا ليلتهم على بلاط الغرف الدراسية في البرد القارس، ثم ما لبثت المساعدات أن أتت شيئاً فشيئاً.

يوم الثلاثاء 6 كانون الثاني 2009، حدث في محيط المدرسة ما لم يكن بالحسبان، فغرب المدرسة توجد ساحة واسعة، يليها شارع ضيق يوصل المدرسة بمنطقة السلاطين والعطاطرة، وكان هذا الشارع وتلك الساحة يغصان بالقادمين الجدد من تلك المنطقتين للجوء للمدرسة، وفجأة وأنا في داخل المدرسة شعرت كأن زلزالاً ضرب المدرسة، وإذا بعدد من الناس الذين بالداخل تسيل من أجسامهم ورؤوسهم الدماء، وحاولت أن أسعف من أراه منهم، ظناً مني أن هذا كل شيء، ولكن جاءت النداءات والاستغاثات والصراخ من خارج المدرسة، وكان ما رأيته داخل المدرسة إنما هو فقط من تطايُر شظايا الانفجارات والقنابل. خرجتُ مسرعاً إلى الخارج، حيث الساحة والشارع الضيق، ويا لهول ما رأيت! رأيت جثثاً وقطعاً آدمية ودماء وأشلاء ولا أدري ماذا أقول أو أصف. لقد كان الموت في كل مكان، وكان من الصعب التعرف على الشهداء من شدة تمزق الجثث وكثرتها واختلاط بعضها بالبعض الآخر، وجاءت سيارات الإسعاف والدفاع المدني على الفور، ولكن أنَّى لها أن تستطيع التعامل مع هذا العدد الضخم من الشهداء والجرحى! وكان من أكثر المناظر إيلاماً بالنسبة لي أن وجدتُ من بين الشهداء ثلاثة من طلاب أحد الصفوف التي أعلمها، رأيتهم مضرجين بدمائهم، وصرت أستذكر صورتهم، وأستذكر أنني قمت بتصويرهم وهم أحياء -كأني كنت أعرف أنهم سيستشهدون- فقمتُ بتصوير جثثهم وهم شهداء باستخدام جهاز الجوال الخاص بي. ومن يومها لا تكاد صورتهم تفارق مخيلتي، وقد آثر زملاؤهم -بعد انتهاء العدوان وعودتهم للمدرسة- أن لا يجلس أحد على مقاعدهم، وأن يضعوا اسم كل منهم على مقعده.

بعد هذا الحادث مباشرةً وحتى يومنا هذا لم تهدأ وسائل الإعلام المحلية والعربية والعالمية -ليلاً أو نهاراً- وهي تطلبني لأروي لهم ما حدث، وكأني الشاهد الوحيد على الحادث على الرغم من أني كنت داخل المدرسة وقت حدوث القصف، وقد لفت نظري أن كثيراً من وسائل

الإعلام –ولا أقول كلها– كانت تتعامل مع الحدث وكأنه خبر غريب يريدون التسابق على نشره، دون النظر إليه كحادث مروع يعكس حجم الوحشية للاحتلال الإسرائيلي، وحجم المأساة التي يعيشها شعبنا والظلم الذي يقع عليه، بل شعرت أن كثيراً من المراسلين يعتبرون مهنتهم كأي مهنة أخرى كالحدادة والنجارة والبناء وغيرها.

وأخيراً وضعت الحرب أوزارها، ووقف القصف والدمار، ولكن آثاره لم تزل في نفسي ووجداني أولاً، وفي نفوس طلابي الذين صحوا من هذا الكابوس ليجدوا ثلاثة من زملائهم في الفصل الثامن قد فارقوهم شهداء في هذه المجزرة البشعة، إلى جانب طلاب آخرين وعدد كبير من الناس الذين كانوا داخل المدرسة أو جوارها. لقد فارقنا ثلاثة من أحب الطلاب إلى قلوبنا، وأرقّهم وأنبلهم، وهم بشار ناجي، وعصام ديب، وعاهد قداس. لقد كانت الفاجعة أليمة والحدث جلل، حضر الطلاب للمدرسة ودخلوا الفصل وكأنه غريب عنهم، دخلوا يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، وأخيراً جلس كل واحد في مكانه دون أن ينبس بِبنت شفة، مطأطئي الرؤوس، عيونهم تذرف دمعاً حاراً، ولم يفتحوا كتاباً أو يمسكوا قلماً، ثم ما لبث أحدهم وأخرج أوراقاً وقلماً كتب على كل ورقة منها اسم واحد من الشهداء الثلاثة وألصقها على المقعد الذي كان يجلس عليه.

تمالكتُ نفسي على الرغم من أنني أعاني ما يعانيه طلابي، وقررت أن أعمل شيئاً يُخرج هؤلاء الطلاب من هذا الجو الكئيب، وأجعلهم يفرغون تلك الشحنة العظيمة من الكبت التي تملأ عقولهم وقلوبهم. طلبت من الطلاب إزاحة المقاعد ورصها في أطراف الغرفة، ثم أحضرتُ حصيرةً كبيرة وفرشتها في وسط الغرفة، وجلستُ أنا والطلاب سوياً عليها، وجلسنا نتحدث عن هؤلاء الشهداء حديثاً حراً كما لو كان تداعي أفكار، ثم انتقلنا إلى الحديث عما جرى لكل طالب أو لأسرته أو جيرانه أو أقاربه أو أصدقائه بعفوية مطلقة، مع بث التشجيع وعدم الضعف أو الخور لدى الطلاب. وأثناء هذا الحديث ذي الشجون، كنت قد أرسلت طالبين إلى محل بيع الفلافل المجاور للمدرسة، لشراء الخبز والفلافل لجميع طلاب الصف، وما أن أفرغ الطلاب جزءاً من الشحنة التي بداخلهم حتى وصل الخبز والفلافل، وجلسنا نأكل جميعاً في جو عائلي ممتع أخرج الطلاب من الجو الكئيب الذي كانوا غارقين فيه. كررت تجربة هذا اليوم لليومين الثاني والثالث، وكان مفعولها كالسحر في نفوس الطلاب.

وخلال هذه الأيام الثلاثة فكرنا –أنا وطلابي– فيما يمكن أن نقدمه لزملائنا الشهداء وفاءً ومحبة، واستقر الرأي على الذهاب إلى بيوت العزاء الخاصة بالشهداء الثلاثة، وقد ذهبتُ مع طلاب الصف وأخذنا معنا الأكاليل وقدمنا واجب العزاء لذويهم. كما اتفقنا على عمل صورة مكبرة تجمع ثلاثتهم وتعليقها في الفصل حتى لا ننساهم أبداً. وكذلك إحياء ذكرى الأربعين عندما يحين هذا الموعد، حيث نذكر مناقبهم ومآثرهم، ونذكر ما ينتظرهم وأمثالهم من الشهداء من ثواب عند الله سبحانه وتعالى.

أما فيما يتعلق بالمنهاج المدرسي، فقد اتفقت مع زملائي مدرسي اللغة العربية على إجراء بعض التغييرات على الخطة الفصلية، بحيث يتم تقديم بعض الدروس مثل قصيدة «حمزة» لفدوى طوقان التي تحكي ما فعله اليهود بابن عمها حمزة من هدم بيته وسجن ابنه؛ لمناسبة هذا الموضوع للظرف الذي عشناه أثناء العدوان وبعده.

كما اتفقت مع مدير المدرسة وموجه المادة على تنفيذ درس توضيحي خاص بتوظيف التخيل واللعب والأحداث الجارية في تدريس اللغة العربية، وتم الإعداد للدرس وسيتم تنفيذه قريباً.

لم أنس التعبير الكتابي والرسم، فطلبتُ من كل طالب أن يكتب ما يروق له عما حدث أثناء العدوان أو عن الشهداء الثلاثة أو أحدهم: ذكر ما جرى، المشاعر والأحاسيس، الأمنيات والتطلعات . . . كما طَلبتُ منهم أن يرسموا ما يروق لهم حول هذا الموضوع، وقمنا بتعليق رسومات الطلاب على جدران الفصل.

ونظمتُ لطلاب الفصل رحلة ترفيهية علاجية لمركز القطان للبحث والتطوير التربوي يوم الاثنين 23 شباط 2009، حيث قامت د. مي نايف بإدارة أنشطة تراوحت بين الحديث الشفوي والتعبير الكتابي وبعض الأنشطة الحركية، أعقب ذلك مشاهدة فيلم محلي واقعي بعنوان «الجواهر الثلاث» للمخرج ميشيل خليفي، شد انتباه الطلاب وأخرجهم من دائرة الكبت والحزن.

وأخيراً، لا بد من كلمة في هذا المقام، فبلادنا تتعرض بين كل فترة وأخرى لأحداث ومآسٍ جِسام، ولا يبدو في الأفق أن هذه الأحداث والمآسي ستنتهي، ألا يَدعونا ذلك لأن نخطط جيداً من الآن لما يجب القيام به قبيل وقوع الأحداث، وما يجب عمله أثناءها، وكيف نتصرف بعدها، ونوحد الطاقات، ونوفر الإمكانات اللازمة لذلك، حتى نتجنب ما أمكن من الآثار السلبية لمثل هذه الأحداث على طلابنا خاصة، وعلى أبناء شعبنا عامة؟ أرجو ذلك.

بسام حسين صالحة
مدرسة الفاخورة – مخيم جباليا

* الصور الواردة في هذه المقالة مستلّة من أرشيف صحيفة «الأيام» الفلسطينية.